OPEN ACCESS
This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

اسباب الحقيقية لسقوط الدولة الأموية في الأندلس

دکتورہ عصمت ناز
محاضرة بقسم اللغة العربية، الكلية الحكومية، جامعة البنات، ملتان
Asmat Naz **Email:** dr.asmat.naz123@hotmail.com
Professor, Department of Arabic, Women University, Multan

Abstract:
"Downfall of the great Muslim rule in Spain was not only a downfall of that state but also a decline of Muslims all over the world. The glory of Spanish Muslims was the glory of development in all steps of life in all fields of society and education. But unfortunately due to some sound and strong reasons Muslims were obliged to quit Spain or Undles in very terrible conditions. In this research article I describe main features, reasons and the actual situation of Muslim Dynasty, because still there are so many things to explore and explain in this regard. I tried my best to present the actual faults especially from Muslims rulers and their ministers."

Key Words:
Downfall, Spain, Muslims, Cordova, Europe.

Receive Date: 20-02-2023
Accept Date: 27-02-2023
Published Date: 30-06-2023

كان سقوط الدولة الأموية في قرطبة وانقسام الأندلس إلى دويلات وطوائف إيذانا بنهاية الوجود العربي الإسلامي في تلك البلاد، ولم يكن سقوط الدولة الأموية الأندلسية مجرد انقلاب سياسي استبدل فئة بفئة أخرى فلقد رافقته فتنة كاسحة لم تشهد لها الأندلس مثيلا من قبل۔ وبلغ الصراع على السلطة حدا جعل أحد أمراء البيت الأموي يستقدم البربر من وراء المضيق ويلقى بهم بلاوازع ولا نظام في قرطبة فيلحقون بها الدمار الشامل، ويهدمون قصور الزهراء العظيمة قبل أن يمضي نصف قرن على بنائها و ينهبون البيوت والأسواق ويفتكون بالناس فتكا زريعا۔

أدت هذه النكبة المؤسفة إلى زوال هيبة الحكم واستشراء الفوضى والتجاوزات المختلفة، وكان العدو الخارجي متربصا في معاقله الجبلية في الشمال يتلقى العون من اروبا كلها وبخاصة فرنسا والكنيسة الكاثوليكية في روما۔

وقصة خروج المسلمين من الأندلس لم تكن قصة عدو قوى انتصر عليهم، بل كانت هذه القصة قصة هزيمة المسلمين أمام أنفسهم، قصة ضياع وقصة فيها عبرة۔ وكان بقاء مملكة غرناطة الإسلامية في الأندلس قرنين من الزمان معجزة من المعجزات الإسلام، لكن الصراع والفتن والثورات والإضطرابات والإختلافات قد عملت على إطفاء آخر شمعة إسلامية في الأندلس۔[۱]

وهناك تغير وجه التاريخ وأظلمت الدنيا وانقلبت السعادة إلى شقاء والستقرار إلى خوف واضطراب وآهزت الأرض من تحت أرجل الحكام ونالهم الجوع الخوف والمرض وقتلوا تقتيلا۔ وسقطت الأندلس بلدا بلدا في أيدي المحاربين الصليبين ولم تجد المقاومة أو التحصن، فقد سدد الضربات هذه المرة واتصل الصليبيون بالمدد والزاد من كل أوروبا، فانقلبت كل جميل في الأندلس إلى قبيح، وكل عظيم إلى حقير، وكل قوى إلى ضعيف، وحزنت القلوب ونكبت المعقل دماء بدل الدموع، وضجت البيوت كلها بالبكاء والندم ولكن ذلك لا يجد شيئا[۲]، وعبر الانقلاب السليم لم ترق فيه قطرة الدم۔

لم يشعر المسلمون في ذلك الوقت لم يشعروا ما ذا تسرب من أيديهم، وعندما أو شكت الخلافة الأموية في الأندلس على السقوط، لم تسقط دفعة واحدة، بل ضاعت بلدا بعد بلد، لكن في الوقت هذا الذي كان الوقت الزوال ينظر كل أمير إلى شخصيته وإلى مصلحته ولم تقتصر هذه المأساة على فعل أمير واحد، بل قلد بعضهم بعضا، وصار من العادات المألوفة أن الأمير إذا اضطر لجأ إلى ملوك النصارى وهم وجدوا فرصة كي يتحكموا فيهم۔[۳]

وأصبحت الدولة في يدي أولادهم لعبة لاعب، والمضريون واليمنيون والصقالبة وبربر وافرنجة كلهم يتخاصموا لأجل سيادتهم، لكن قد انتهى الوقت، فما كادت سقط الدولة العامرية حتى نعقت غربان الشر من كل جانب وعاثت شياطين الدمار واندلعت نيران الفتنة، لم تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ويبداء عهد الخذلان من ولاية سليمان بن الحكم بالمستعين بالله كانت أيامه شدادا نكدات، صعابا مشؤومات كريهات المبداء والفاتحة وقبيحة المنتهى والخاتمة دولة كفاها ذما أن أنشاها (شانجة) وفرقتها الافرنجة۔[۴]

وبعدها ترتد المسيحية عن ابوابها وأمام حصونها، تنحل عزائم الاسبانيين شهدت عز عبدالرحمن الناصر والحاجب، فكانت كالعروس حينا بعد حين تجلى لتزف في زينتها لنصر جديدة ما أكثر اعراس قرطبة وأبهج افراحها الملوك خاضعة وإليها ترسل الهدايا ترسل الهدايا خاطبة ودها قوافل السبايا والغنائم معروضة في اسواقها يكاد لا ينقطع النداء عليها قرطبة دار

العلوم ومعهد الفنون والصنائع. حرم الجامع الكبير ذي السواري. والدة الزهراء ذات القصور و الحدائق تشع أنوارها على اوروبة في دياجير القرون الوسطى . هي۔۔۔ الأن في ماتم بعد عرس كما قال البحتري۔[۵]

لقد كانت تظهر بوضوح أثار الجهود الفردية للزعامات القوية بالأندلس وهذه الآثار تظهر دائما في كل المجتمعات البشرية إلا أن التاريخ الأندلسي يحتفظ جيدا بالأدوار المهمة التي قام بها عبد الرحمن الداخل منشئ الدولة وبعد الرحمن الناصر باني عظمتها وجلالها والمنصور بن أبي عامر أقوى رجالها. وليس هناك كثيرون غيرهم من الأقوياء الذين ظهروا على مسرح الأحداث لفترات طويلة۔ كان الزعيم القوى يظهر بالأندلس في الوقت المناسب بعد الاضطرابات الخطيرة التي كانت تعرض المجتمع كله للفتن والضياع وكان كل حركات النشاط العفالة المؤثرة في حياة الدولة ومواطنيها كانت مدفوعة فقط بجهد شخص واحد تلتف حولة القوى المنجذبة إليه بحكم مصلحتها، أو بأثر احساسها يتفوقة وامتيازه . وإذ فقد المجتمع مثل هذا الفرد القدير بدا مجتمعا مفتتا مضطربا يموج بالفتن والمتاعب ولا يستطيع أن يحمى نفسه من فوضى وتعدد العناصر فيه ولا يهتدى سريعا إلى تقديم زعيم يكون وجودة ضروريا لا ستقامة الحياة فيه من جديد۔

ومجتمع الأندلسي دائما زعامات محلية كانت تساعد التفرق والانقسام . وقد ايضا زعامات صغيرة لم تكن تعيش الأوسط الفتن. ولم تتهيا الظروف المساعدة لتكوين الشعب المنسجم. وفي العصور الذهبية نفسها كان من عمل الزعيم هناك أن يجري سريعا وراء غّياته. وأن يطلب من المجتمعات الخاضعة لسيطرته أن تتابع سيره. وإن تطيع أمره . ولم يفكر زعماء الأندلس طويلا في كيفية الوصول إلى تكوين المجتمعات التي تفخر بها الدول المتقدمة اليوم۔ كان من المأمول أن يخطر هذا التفكير لبعض قادة المجتمع الأندلسي. لما هو معروف من تطور الحضارة الأندلسية وتقدمها۔

لقد تطور الناس مع الحياة بالأندلس وتشير إلى ذاك كتب التاريخ بوضوح وكان هناك شعب عظيم متحضر له من قوة الوجود والأثر ما حزم قضية الحضارة الانسانية في كل مكان. ولا تزال آثار هذا الشعب العظيم قائمة إلى اليوم تشير إلى عظمته البالغة وإلى تفوقه وامتيازه. ولكنه مع ذلك لم يسبق الزمن في الأحساس القوى بضرورة الوحدة الشاملة لكل عناصره. ولم يعمل من كثيرا الهدف التماسك حول زعامة واحدة يقف منها موقف المؤثر فيها والحريض عليها۔

لقد كان الموجود بالمنطقة شعباً قلقايحس بالبعد والغربة ويشعر بالأخطار من حوله، وكان هناك شعب متمرد ناقد لا يثق في كثير من زعمائه ولا يؤمن بسلامة مصرية لذلك بدت تصر فاته في كثير من الأمور تصرفات عصبية ليس فيها أثرا الأقوياء ولا حكمة الآمنين، ولا شعور المواطنين في البلد الواحد بالهدف الواحد والمصير واحد ، حتى في ساعات الخطر كان الجميع يحسون بضرورة مواجهة هذا الخطر في وحدة متماسكة، ولكنهم مع ذلك كانوا يحرصون على تمايزهم وانفصالهم، أو كانو يحرصون على وجودهم كقوات متميزة ووحدات منفصلة۔[۶]

وقد يكون ذلك بسبب انقسام العناصر المكونة لشعب الأندلس، وكلها كانت ترجع في أصلها البعيد إلى اجناس مختلفة ليس بينها قرابة، وحتى المجتمعين منهم في أصل واحد ما كانوا يميلون إلى الوحدة الشاملة وربما كان ذلك لأن العناصر الأساسية في المجتمع الأندلسي كانت قوية تستطيع الاعتماد على نفسها في المحافظة على وجودها المستقل بالمنطقة التي تعيش فيها، وفي المحافظة على انفصالها كوحدات ترفض الخضوع لأي جنس مهما كانت أسباب تفوقه، ومهما كانت امتيازاته، وكلها كانت ترى في استقلالها وفي الشعور الذي بمصالها الخاصة نوعا من استمرار وجودها ذاته، أو نوعا من عدم التعرض للانصار المؤدى إلى التلاشى وضياع الشخصية۔ يعني عوامل الصراع على أرض شبه الجزيرة الآيبيرية تتمثل ليس فقط في مقاومة أهل شبه الجزيزة للفاتحين المسلمين، بل لقد شغل الفاتحون أنفسهم بما وقع بينهم من مخاصمات وحروب، فقد ثارت العدوات بين قبيلة وقبيلة وبين البربر والعرب وبين القيسية واليمنية وبين الشامية والمدنية يعنى كل واحد يزعم نفسه أعلى على الآخر۔[۷]

وقالو أن الزواج ولاة الأندلس العرب وأمرائهم بالاسبانيات ايضا سبب من الاسباب الذي أثر على ضعف المسلمين، هذه من ناحية ومن ناحية أخرى قد أدى هذا التزاوج مع الاسبانيات إلى طبيعة العرب، ولا سيما البربر فريق من اخلاقهم وأضعف من وحدتهم، وكما ذكرنا في البدية البحث لأن أول من تزوج من العرب باسبانية هو عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد تزوج بالسيدة ''ايلونا'' أرملة لزريق ملك القوط۔ بعد أن مات أثر خروجه في واقعة شريس التي تغلب عليه فيها طارق بن زياد، وتزوج الأمير محمد بن عبد الله بن محد بن عبد الرحمن الأوسط باسبانية اسمها ''مارية'' ورزق منها بولده عبد الرحمن الناصر، وتزوج الحكم بن الناصر بالسيدة ''صبح'' البشكنسية وأعقبت له هشام المؤيد، كما تزوج المنصور بن أبي عامر بنت ''شانجو'' ملك ناقارية، وولدت لكه ابنه عبد الرحمن المعروف ''شانجو'' وقد انتهى الصراع بين الطوائف إلى خلال ادوار الفتنة الأهلية۔[۸]

إن سقوط الأندلس لم يكن في يوم من الأيام بسبب ضعف الحضارة الإسلامية فيها، بل بسبب العصبية القبلية التي وجدت في بعض الفواصل التاريخية قدرة على التحرك ضمن الحضارة الأموية۔ لذلک كان لا بد من ظهور هذا العزوف الاجتماعي الفكري لدى الخاصة عن الصراع العصبي الديني، فقد كان الزهد في الحضارة الأموية بصورة عامة والأندلسية بصورة خاصة أول اشارات هذا العزوف عن الصراع العصبي۔[۹] وبعد ما عاشت الأندلس في آخر عهد الأمويين في اسبانية أقوى ما وصل إليه العرب فيها بفضل وزيره الأكبر المنصور، فلما مات ذلک الوزير في أوائل القرن الحادي العشر من الميلاد، سقط ملكهم معه، فأصبح البربر سادة البلاد، وصار كل وال ينصب نفسه ملكا، وبفضل ذلک الانقسام سقط الملک من أيديهم من قبل ادائهم في الخارج، فأثبت العرب لنا بذلک كما قاناه آنفا، أن النظم التي بها تبلغ الأمة أعلى درجات العظمة يمكن أن يؤدي بها إلى هوة الانحطاط۔[۱۰]

وعاش الأندلس في هذا القرن المأساوي الحيرة المذهلة من جراء ذلک الصراع الدموي الأعمى على السلطة، فكانت فتنة ضاعت بين كثير من حكامها المعاني الرفيعة وفقدوا الحظ الخلقي المسلم، ومن اكبر أسباب في نشوء هذه الحالة تلک هي السياسة والتسلط الفردي المستبد الذي انتهجه المنصور بن أبي عامر بعد أن انتزع أو سرق، السلطة لنفسه ولنسبه والذي في مدة حكمه اتبع سياسة ذات حدين۔[۱۱]

فمن ناحية مستعينا الداخل قضى على كل معارضة ومن ناحية أخرى كان بسبب بث الفتن بين الفرسان وأصحاب الرأي بعضهم ببعض، يستعين بالواحد منهم على الآخر، ثم يقضي على الثاني، فلما زالت هذه القوة المتفردة (المنصور) لم يبق هناک من يمسک الخلافة ويحافظ على وحدة الأندلس، بل كان فيام دول الطوائف، لكن في هذا الجو من التوزع والحيرة النفسية والسياسية نجد النوابغ الأعلام في العلوم والفنون والآداب[۱۲] لكن هؤلا لا يستطيعوا أن يقفوا ضد زوال المملكة، لكن بقية اسم المملكة بفضل الازدهار في الفنون والعلوم ويفضل الأعلام والائمة۔

لأن العناصر التي تسبب في كانت السقوط أقوى من العلوم والفنون في ذلک الوقت، مثل الصراع العنصري الجنسي العرقي الدموي، وارتفاع رايات متعددة بعيدة عن راية الإسلام الواحدة المتصلة بالنفوس و العقول واستعانة مسلمي الأندلس بالأعداء ضد بعضهم البعض، وكل العوامل الأخرى تدور حول هذه النقاط بطريقه أو بأخرى۔ ولقد دفع مسلموا الأندلس جميعا ثمن أخطائهم، دفع الحكام الثمن حين أذلهم الله وسلبهم ممالكهم، وهل ننسى اشعار

ابن عباد البائسة حين اذله الله على يد المرابطين في ''أغمات'' بالمغرب الأقصى؟ وهل ننسى قول حاكم ''المرية'' وهو يموت ـــ نغض علينا كل شئ حتى الموت؟ وهل ننسى دموع ـــ أبي عبدالله آخر ملوك غرناطة ـــ حين رحلت به سفينة العار مودعة أخر وجود إسلامي في أوروبا، رحلت به على أنغام الأمواج الهائجة وكلمات أمه المسكينة تدوى في سمعه:

''إبک مثل النساء ملکا لم تحفظ الرجال''(۱۳)

ولقد دفع الشعب الإسلامي الثمن حين استسلم لأمثال هؤلاء الملوك ولم يأخذ على أيديهم، فأحرقت داره وسلبت أمواله وأرغم على تبديل دينه، بل و تغيير اسمه وحرمته الصليبية الاثمة أبسط حقوق الإنسان۔(۱۴)

والتاريخ الإسلامي يكشف لنا أن حركة التاريخ في دائرة الحضارات الكبرى الجامعة كالحضارة الإسلامية حركة لولبية، إن صح هذا التعبير فثمة انحناء إلى أسفل انحناءت إلى أعلى في جوانب أخرى فهي حركة دورية نتنظمها مراحل الهبوط والصعود بفعل الاستجابة لتحديات خارجية قوية۔

ومن الملفت للنظر أن مراحل الهبوط في التجربة التاريخية لهذه الأمة قد ارتبطت بأوضاع داخلية، فهذه الأمة لم تضرب من خارجها بقدر ما ضربت من داخلها، بل إن الأعداء الخارجين لم ينفدوا إليها إلامن خلال السوس الذى ينخر فيها من الداخل، ولقد آفادنا الأعداء بتدخلهم كثيرا لان غالبا ما كان لتدخلهم فيه فضل إيقاظ الضمير الإسلامي ، أو اعلان الجهاد العام أو اظهار ''صلاح الدين'' أو سيف الدين، مما شأنه أن يجمع المسلمين تحت راية واحدة۔(۱۵)

لكن هناک المفكرين والمؤرخين أن هنالک اشياء أخرى حسب أفكار هم لزوال الدول في العالم منذ بدء الخليفة حتى الأن ، أوهم يقولون لكل حضارة حلقة البداية وحلقة النهاية وحلقة متناهية، تمر بأطوار أربعة: التكوين، النمو، الانحلال والاضمحلال۔ إن الحضارات لا يمكن أن نفهم إلا في نطاق الجمود الدوري أي أنها ككل كائن حي، يقول توئين بي ، الذي أقام الدليل على أن كل الحضارات هي معرضة للزوال ، إن المستقبل مفتوح ، نعم هو مفتوح، لكن على أي غد؟ إن كل الحضارات السابقة ارتكبت'' أخطاء وحماقات ''انتهت بزوالها، فالأمر يرجع إلى قدرة الحضارة اليوم على تجنب الأخطاء والحماقات التي ارتكبتها حضارات الأمس۔

يعنى سقوط الدولة في حد ذاته أمر طبيعي لأن الدول كما يقول بعض المؤرخين، مثل ابن خلدون:

''أن سقوط الدولة كالأفراد والكائنات الحية تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء ، إنما المهم هنا ما تتركه هذا الدول من آثار ايجابية تخلد ذكراها''(۱۶)

وهكذا يقول مؤرخ الماني ''شبينغلر'' إن التاريخ يتكون من كائنات حية هي الحضارات ، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن الحي العضوي، يمر بنفس الأدوار و أخيرا تفنى إلى غير عودة۔ ونظرية توئين بي تنبني على رفض النظرية العرقية حيث تعتبر إن الحضارة من صنع عرق معين يتميز عن غيره بمواهب بيولوجية متفوقة، كما ترفض أيضا نظرية البيئة الجغرافية معتبرا، إن الحضارة تقوم في بيئة جغرافية ملائمة تحوى شروطا لتسهل المعيشة ومضمون النظرية يعبر بأن الاحوال الصعبة المعاكسة هي التي تساعد على قيام الحضارة وليس الأحوال المواتية أي تقوم هذه النظرية على استجابة ورد الفعل على التحدى، ويعطى توئين بي مثالا على ذلك الحضارة التي قامت في وادي النيل۔

هنالک إذا أسباب عديدة ووجوهات نظر متعددة حول مسألة سقوط الدولة الإسلامية ، وهناک آراء أيضا بكثرة، نجدها في كتب التاريخ والحضارات، وهذه الأسباب التي اساهمت في سقوط الدولة كانت قد أثرت أيضا في تشكيل تحركات الأحداث التاريخية في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية۔ لأن التركيبة أو البنية الإجتماعية للمجتمع الأندلسي كانت تمثل مزيجا من عناصر عرقية ودينية، مثل العرب والبربر والمسالمة والمستعربون والصقالبة والنصارى واليهود، تلک هي عناصر المجتمع الأندلسي الذي لم تكن لا وحدة عرقية ولا وحدة دينية، وتسيطر على فئاته التنافسات والخلافات، ويلاحظ هنا أن هذا المجتمع لم تكن طبقاته منقسمة وفق الأجناس، بمعنى أنه لم يكن هناک طبقة عربية أرستراطية ووسطى ودنيا، وطبقة بربرية ومستعربة ومولدة بذات الأنقسام، بل يمكن أن نقول إنه كان هناک طبقة أندلسية ارستقراطية وأخرى وسطى وثالثة دنيا۔ (۱۷)

العرب فقد تناسوا عصبيتهم القبيلة بين القبيلة ، لأنها قد استلت من نفوسهم وأنما أحلت ونحت وليحل محلها في المرتبة الأولى الخوف المشترک من المصير المشترک ، مع الصراع والاختلافات هناک عنصر مهم هو جغرافية إسبانيا الذي لعب دورا لعدم استقرار البلاد تحت وحدة سياسية منذ أيام القوط إلى الأن دون مبالغة، فشبه الجزيرة تغلب عليها

الطبيعة الجبلية الوعرة وحبتها العناية الإلهية بأودية وهضاب وسلاسل جبلة منيعة وأماكن نائية كانت ملاذا للثائرين والخارجين على النظام۔

وانعكست هذه الطبيعة القاسية الوضع السياسي في شبه الجزيرة الآيبيرية ، فلم تستطع أية حكومة مركزية سواء كان ذلک في عهد ملوک القوط الاسبان، أو في عصر ولاة الأندلس ، أم في عهد الأمراء وخلفاء بني أمية ومن خلفهم إلى وقت قريب من العصور الحديثة۔ نقول لم تستطع تلک الحكومات أن تحقق وحدة سياسية تضم شبه الجزيرة كلها أو معظمها إلا بالقوة المسلحة الشديدة، وبفضل مميزات ذاتية فريدة لملوک أقوياء غير عاديين، فإذا ضعفت هذه الحكومة المركزية أو تولى أمرها ملوک ضعاف عادت عوامل التفكک الجغرافي لتؤدي دورها۔

وكل من رأى الدلوة الإسلامية في الأندلس وأطلع على قوتها وبنائها لا يتصور أنها ستضعف أو تقف عن التوسع أو التأثير على الغير، أما أن يفكر في زوالها أو سقوطها أو فهذا ما لا يخطر له على بال أبدا۔ فمن كان يظن أن أمما بجمالها وبلدانا بمبنيها ومنشأتها ومساجدها ومدارسها ستزول من الدنيا كلها ومن كان ين أن اجيالا مسلمة وعربية كانت تعيش على أرض سمائها إسبانيا ستمحي وينسى أبناؤها دينهم ولغتهم و أباؤهم وأجدادهم۔ وليس من العجب أن ينتهي جيل ويحل محله آخر أو تنقرض أمة وتحل محلها أخرى لكن العجب في أن يمحي أثر هذه الأمة الذي كان متمكنا من العقيدة والعظم والدم والحجارة الا بقية كالأثر الذي أتت عليه الريح ومن أجل الاعتبار والغفلة وحتى يكون للتاريخ طعم وقيمة، هاک بقية كالأثر الذي أتت عليه الريح ومن أجل الاعتبار والغفلة وحتى يكون للتاريخ طعم وقيمة ، هاک أسبابا موجزة رئيسية لسقوط هذه الأمة العظيمة[۱۸] وهنا نذكر فقط بهذه الاسباب التي سبق ذكرها في السطور السابقة۔

لقد كان العز و السؤدد اللذان بلغتهما الأندلس في تلک الحقبة من الزمن مغريا بالشعور بالكمال و الستقرار وعدم التفكير في ضده، وكان ذلک سببا في بدء الانحدار المسلمين في تاريخهم الصورة الطبيعية التي وصلوا اليها في حكم الأندلس، فأنهم بدؤوا من نقطة حتى وصلوا إلى أعلاها وهي جبال غرناطة الشامخة فقد كتب لهم الاستقرار، وانتهى أعداؤهم عندما استولوا عليها، وفي النكسة كانت حصون غرناطة هي الصدى الناعق بانتهاء عصر الدولة الاسلامية في الأندلس۔

وفي عهد الدولة الأندلسية صارت الأندلس مقصد كل طامح للثراء والغنى وجادها ورزقها رغدا من كل مكان، وهذا هو السبب الثاني ، لأن الانسان في طبيعته يحب المال ويرضاه لنفسه، لكن دائما عندما الشخص تجاوز في حده، يخسر لأن المال ليس بحد ذاته خيرا محضا أو شرا محضا، فمن أخزه بحقه و أنفقه في الخير۔۔۔ كان خيرا، ومن استعمله لمطامعه وملذاته۔۔۔ كان شرا وهكذا كان الشأن بالنسبة للدولة الأندلسية، المال أصبح فتنة بين الطبقات و الترف أيضا سبب من الأسباب ومن الأخطر الأشياء على الأمم انغماسها في الترف والميل إلى الراحة والنغماس في المتع والملذات، وقد طابت الأندلس وانقلبت إلى جنات، فالأرض مخضرة والكيس ممتلي ء والجمال متوفر والطاعة وافرة والمتعةرخيصة، فأنغمس أهلها في النعيم وألفوه وحينئذ استغل هذا الجانب أعداؤهم الذين يعيشون بينهم وقد نجحوا في هذا إلى حد كبير۔[۱۹]

وقد قيل أيضا الأمة قد تقرب من الهلاك وتدنو من الهاوية عندما تنسى ماضيها وتتنكر له وتنفصل عن أصوله ، وقد ودع قوم من أهل الأندلس هذه المباديء واختاروا غيرها وفصلوه عليها، فضاعوا وأضاعوا وندموا فالذي ينكر ماضيه أو ينساه أو يهمله أو يبتغي غيره فهو يهدم بيته شأ ذلك أم أبي۔

والتسامح في الأندلس أدى دورا كبير للسقوط، واتخذ معني جديدة حتى صار يعني ترك الأمور على طبيعتها ومن باب التسامح في الأندلس التسمح في الأنساب والدماء واختلاطها وعدم اختيار الصالح منها، فقد أكثر القادة الزواج من غير جنسهم فاختلطت أنسابهم وقل حماسهم، وضعفت شخصيتهم ودخلت أحوالهم عن قرب وفي كل الأحوال حتى المرأة تؤثر تأثيرا مباشرا في السياسة والحكم والقرب والبعد والتعين والعزل والهبات والأعطيات۔[۲۰]

ومن العوامل الرئيسية في سقوط الأندلس، اتخاذ الحكام مستشارين من غير ملتهم وعلى غير مشربهم أصبحو يشكلون خطرا كبيرا۔ اضافة إلى هذا الخطر هذا الخطر هناك خطر أكبر على الدولة التي يتسلق إلى كراسي الحكم فيها حكام صغار لم يجاهدوا ولم يتبعوا في تحصيل الملك ولم يعانوا أنواع الألم والتعب وأنما وجدوا كل شيء معدالهم فوفقوا عندحده ولم يحافظوا عليه حتى ضاع الملك منهم، فنقل المقري في نفح الطيب:

''إن شارل مارتل قال لقومه حينما شكوا إليه استيلاء العرب على بلادهم انتظروا لا تواجهوهم في اقبال أمرهم، فأن لهم ارادة قوية ونية صادقة وحصانة من أن

يهز مواحت تهداء أمورهم ويأخذوا في التنافس في الرئاسة والملك والمال، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم، فتتمكنوا منهم بأيسر مجهود"[۲۱]

ويقول المقرى بعد نقل هذا القول "فكان والله ذلك" وعندما ذال هيبة الدولة، أخذوا فرصة العدوين وأختل نظام الحكم نفسه من الفصل بين السلطتين السياسية والروحية۔ فالحقيقة أن الأندلس لم تشهد منذ فتحها فصلا بين السلطتين سواء كان ذلك في عصر الولاة، أو في عصر الأمارة أو عصر الخلافة، وحتى أيام الخليفة الحكم المستنصر، كان الوالى ومن ثم الأمير فالخليفة يقبض بكلتا يديه على السلطتين السياسية والروحية، وكان الناس ينطرون إلى هذا بعين الرضاء والقبول، إذ لا فرق عند المسلمين بين السلطتين ابدا[۲۲] وعلى هذا فإننا نستطيع القول بأن اسناد الخليفة الحكم المستنصر ولاية العهد لا بنته واستئثار المنصور بن أبي عامر وولده من بعد بالسلطة، كان أحد أسباب لسقوط الدولة الأموية وزوال هيبتها۔ [۲۳]

ولأن هناك في المجتمع الأندلسي جنسيات كثير ومن بينهم العرب الذين كانوا يشعرون بنوع من الفخر لذلك عناصر الأخرى عندما وجدوا فرصة أسهموا سهاما قويا على ظهر المسلمين واتضح هذا الدور السئي لهم عندما بدأت الخلافة تتهاوى إذ ظهر مدى فسادهم وانعدام أي شعور بالصلاح لديهم هذا ما ساعد على سقوط الدولة[۲۴] فمجتمع كهذا بكل عناصره الرئيسية المكونة له كان من المستحيل توحيد صفوفه طالما أنه يصعب توحيد قلوب سكانه على شعور قومي موحد، وذلك لأن كلامنهم كان يهتم إهتما ما مباشرا بعصبية الدينية والعرقية قبل أي شيئ أكر، فإذا داهمه داهما انشغل في الدفاع عن مصالحه الشخصية أولا، ثم عسبية الجنسية ثانيا۔[۲۵]

نجد في الدولة الإسلامية الأموية النصارى أيضا الذين يكنون الكره والحقد للمسلمين وقد مارست هذه الممالك النصرانية سياسة الاسترداد ولم تتوقف ولو لحظة عن التفكير في إنهاء الوجود الإسلامي وساعدتها في ذلك الظروف والخلافات والمنازعات بين المسلمين منذ الفتح وحتى نهاية الدولة الإسلامية في الأندلس، وإزداد الأمر خطورة عندما بدأ الثائرون على الدولة الإسلامية يطلبون مساعدة هذه الممالك ضدا خوانهم المسلمين، فاستغل هؤلاء العرض أبشح استقلال لحكام المسلمين۔

على أن أخطر ما في القضية هو طلب الخلافة الأموية في أثناء تولى خلفائها الضعاف السلطة المساعدة العكسرية من هزه الممالك النصرانية ضد بعضهم البعض مچل الخليفة سليمان المستعين الذي طلب مساعدة سانشوا غارسية أمير أورقلة الكونت أرمينجيو، وكل هذه

المساعدات كانت مقابل ثمن باهظ هو التخلى عن كثير من الأراضي والحصون لأمرا ء هذه الإمارات الاسبانية۔ (۲۶)

لزلک كان الملوک والأمراء يتنازلون لملوک النصارى عن كثير من أراضيهم وحصونهم وفي النفس الوقت كرامة م وعزتهم ولذلک سقطت الدولة الأموية صريعة أخطائها السياسية الأنية وصريعة ظروفها أوضاعها الاجتماعية والجغرافية والسياسية أيضا۔ وهذه الدولة دخلها المسلمون بآدابهم و اخلاقهم ودعوتهم إلى القيم السامة واقعا جيش المسلمين الأول الذي عبر إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياده:

''لقد نزل بأرضنا قوم لا ندري أهبطوا من السماء أم نبعوا من الأرض''(۲۷)

وقد بقي المسلمون خلال القرون الثلاثة الأولى من وجودهم هناک محافظين على تلک القيم معتزين بها ولكن مع مضي الزمن بدأ البعض منهم يتحلل منها، مما أفقدهم شئيا من مقومات أصالتهم ووجودهم هناک وقد أدرک هذه الحقيقة ابن خلدون حين قال:

''إذا أذن الله بانقراض الملک من أمة، حملهم على ارتكاب المعاصي وانتحال الرزائل وسلوک طريقها، وهذا ما حدث في الأندلس وأدى إلى ضياعها''(۲۸)

وهذا هو البلد الذي قال عنه يوسف بن تاشفين لما رجع إلى مراكش لبعض ثقاته:

''كنت أظن أني ملكت شيئا فلما رأيت تلک البلاد و (يقصد الأندلس) صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها''(۲۹)

والمسلمون أضاعوا هذ البلد وضياع الأندلس بدأ كحقيقة في وقت مبكر من تاريخ المسلمين بتلک الديار، حيث يستطيع الراصد لذلک التاريخ أن قيل:

''إن بداية النحسار الإسلامي فيْ الأندلس، كان منذ أن سقطت الدولة الأموية هناک، بعد أن قام على انقاضها العديد من الدويلات الإسلامية المتنازعة''

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن مسلمي بلاد الأندلس لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بعد سقوط الخلافة الأموية هناک، بل بقوا متنازعين متناحرين فيما بينهم حتى بديئ الضعف عليهم واضعها نتيجة لتزايد الخطر النصراني ضدهم۔ هزه هي أهم عوامل سقوط بلاد الأندلس قال الشاعر (أبدالبقاء الرندي)

لكل شئء إذا ما تم نقصان

غلا يغر بطيب العيش انسان

هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

والمسلمون لم يخسروا فقط الأندلس بل خسروا ايضا بعدها مملكة غرناطة التي كانت قد بقيت لهم۔

مصادر والمراجع

1 ۔ عويس عبدالحليم ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة الإسلامية ط ۔ ۳، جدة ۱۹۸۳م : ۹۵

2 ۔ عبد العزيز المسند ، الأندلس تاريخ وعبرة، القاہرہ، د ۔ ت، ص ۱۴۰

3 ۔ أحمد أمين، ظهر الإسلام : القاہر ۱۹۹۲، نهضة العربية، ۴۶۴۵/۳

4 ۔ طه وادى ، مقالة في مجلة ''الفيصل'' الرياض (العدد۴۸)، دار الفصل بالمملكة العربية السعودية، ص ۶۱

5 ۔ بطريق البستاني ، معارک العرب في الأندلس، لبنان ۱۹۵۰م ، ص ۹۷

6 ۔ على حبيبة، مع المسلمين في الأندلس: ص ۲۲۳ ۲۲۴

7 ۔ بالنشيا، تاريخ الفكر الأندلسي ترجمه حسين مونس، القاہرہ ۱۹۵۵، ص ۱۹۲

8 ۔ رانت غنمي الشيخ ، مقالة في المؤتمر الخامس في زغوان (تونس) ۱۹۹۲م ، ص ۳۳

9 ۔ محاضرات الأدبي والثقافي بجدة، مجموعة ۳۹: ص ۳۹۶

۰ ۔ غوستاف لوبون، حضارة العرب ۱۹۶۹م ، ص ۴۸۱

11 ۔ عبد الرحمن الحجي ، جغرافية الأندلس واوروبا القاہرہ، ۱۹۷۲م ، ص ۳۰

12 ۔ عبد الرحمن الحجي، م ۔ ن ۔ : ص ۳۱

13 ۔ العويس عبد الحليم ، سقوط ثلاثين دولة: ص ۱۱۱۰

14 ۔ عويس عبد الحليم ، سقوط ثلاثين دولة: ص ۱۱

15 ۔ عويس عبد الحليم ، م ۔ ن: ص ۱۱

16 ۔ ابن خلدون، العبر: ج ۴، بيروت ۱۹۷۳م ، ص ۲۲۱

17 ۔ كريم عجيل حسين، بنو عباد في اشبيلية: الرسالة ماجستير جامعه بغداد ۱۹۵۸، ص ۴۹

18 ۔ عبد العزيز مسند، الأندلس تاريخ وعبرة: ص ۱۳۰

19 ۔ عبد العزيز مسند، الأندلس تاريخ وعبرة: ص ۱۳۰

۰ ۔ عبد العزيز مسند، م ۔ ن: ص ۱۳۲

21 ۔ المقري، نفح الطيب: ج:۵، دار اكتب العلمية، مصر ، ص ۱۱۸

22 ۔ حسن ابراهيم حسن، النظم الإسلامية: مكتبه النهضة المرفيه، القاہرہ، ۱۹۸۰م ، ص ۲۴

23 ۔ حسن ابراهيم حسن، م ۔ ن: ص ۲۵

24 ۔ عبد العزيز سالم ،تاريخ المسلمين: القاہرہ، ۱۹۶۲م ، ص ۳۸۰

25 ۔ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي: بیروت ۱۹۸۱ء، ص۳۳۹

26 ۔ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: القاہرہ ۱۹۶۹ء، ص۶۵۰

27 ۔ عبد الله عنان، م۔ن: ص۶۵۱

28 ۔ ابن خلدون، المقدمة: ص۴۲۶

29 ۔ ابن العذاری، البیان المغرب: تحقیق ۔ کولات ولیفی بروفنال، بیروت، ۱۹۶۸ء، ۱۹۹/۳